إلى وزارة المعارف :

وعلى هذا فنحن ندور . . .

للأستاذ كامل السيد شاهين

— ٣ —

والظاهرة التي تتجلى في وزارة المعارف بوضوح وقوة ، أنها لا تنظر إلى الدراسات التي تجد في مصر نظرة المستفيد ، فقد قامت في مصر ثورة قوية على البلاغة ودراساتها العتيقة ، حمل لواءها أول الأمر الدكتور طه حسين ثم الأستاذ أحمد أمين ، ورسما للنقد الأدبي منهجاً إن لم يكن واضحاً كل الوضوح ، فهو — على أية حال — يصح أن يتخذ بذرة لطرق الدراسة التي تصحح الذوق وتقوم الأديب . ورسم الأستاذ الزيات رسماً صحيحاً لطريقة تناول الدراسات الأدبية ، ولو أنه لم يعرض للناحية المنهجية ، ولكن وزارة المعارف لم تعبأ بهذه الصيحات ، وكأنها لا تعنيها هذه الثورة على تلك الدراسات القديمة العقيمة ، فليبق تلاميذ المدارس حيث هم — يتلون سورة الاستعارة التصريحية ، والمكنية ، ويخرجون المجاز المرسل والعقلي ، دون أن يصححوا ذوقاً ، أو يفهموا نقداً . وآية أخرى على غفلة الوزارة عن الدراسات العلمية أن الأستاذ ابراهيم مصطفى كتب كتابه « إحياء النحو » وفيه ثورة قوية على العوامل ، وتيسير كبير على الدارسين ، ولكن الوزارة مضت على غلوائها سادرة لا تلتفت ولا تنظر ، ولا تقف لإهابة مهيب ، ولا تصيخ لصوت داع !.

وها هو ذا المجمع اللغوي يعزم عزمته لتيسير الكتابة ، وتسهيل القراءة ، ويجمع اللجان ويناقش الآراء ثم يكتب في ذلك الكتب واسمة البسط ، وتلقى المحاضرات طويلة الذيل ، وتفحص الآراء في المجلات الأدبية والصحف السيارة ، ووزارة المعارف مغمضة العين ، سائرة في طريقها المعهودة ولو كانت ممتلئة بالأشواك والوحول .

ذكرت ذلك كله عند ما أمسكت بكتاب المطالعة المقرر على آخر سنة في المرحلة الابتدائية فوجدته كله مضبوطاً ضبطاً تاماً ، على زعم أن في هذا تسهيلا للقراءة ، وإفادة للقارىء ، ولكن المعنى لا يجد فيه من هذا التسهيل شيئاً ، وأكاد أزعم أن فيه إرباكا له وتشويشاً عليه ، ولو أن الكاتب — سهل الله له — ضبط ما هو بحاجة إلى الضبط ، ولم يعن نفسه بالضبط التام ، لكان في ذلك الخير كل الخير . خذ مثلا جملة : « حضارة قدماء المصريين » تجد أن الذي يحتاج إلى ضبط هو (تاء) حضارة (همزة) قدماء ، (ميم) المصريين ، وليس وراء ذلك مايدعو إلى تعنية الكاتب والطابع بضبط ما . شقاء للكاتب ، تقول : إنه هين ؛ وعناء للطابع قد تقول : إنه محتمل ، ولكن — لسوء الحظ — تجد في هذا الإمعان في الضبط مساءة إلى القارىء نفسه ، ومشغلة له عن القراءة ، فهو لا يستطيع أن يتابع الحروف والضبوط ، والمعاني في وقت معاً .

ولو أن للوزارة عيناً ترى وأذناً تعي ، لفقهت ما قاله الأستاذ الجارم بك ، في تقريره بشأن الضبط فهو يقرر أن القارىء للكلام التام الضبط « يقطع أوصال العبارات ، لأنه مشغول بتحديد البصر ، وإعمال الفكر ، تحسساً لضبط ما يقرأ قبل أن يقرأ حتى يستطيع أن يقرأ » .

ولو عنيت بأبنائها لرحمتهم من تلك حال ، حال المطالعة في في كتابها المضبوط التي يقول فيها عبد العزيز باشا فهمي : « فتراه كالمجذوب المتوجد ، أو المكروب المتجلد ، جاحظ العينين تارة ، أخرزهما أو أخوصهما تارة أخرى ، مضروب اللسان باللعثمة أو الغمغمة أو الفأفأة أو غيرها من ضروب الارتتاج » .

أفلا يجدر بنا — بعد — أن نقتصر على الضروري في الضبط ، حتى نخلص بالتلميذ إلى قراءة غير المضبوط ولقد جربت أن أقرىء التلاميذ في بعض الجرائد بعد ضبط ماتلجىء الضرورة إلى ضبطه فكنت أجدهم في القراءة أسرع ، وعلى الفهم أقدر ، إذ لا يعتور ألسنتهم تلك العقل العاقلة التي تحبسها وتلويها وتحول بينها وبين الانطلاق والإسراع .

وإذن ، فما كان أجدر أن يشتمل كتاب المطالعة على موضوعات قصيرة يسيرة خالية من الشكل سهلة حتى يمكن التلميذ أداؤها في ثقة واطمئنان ، وتكون محكا لاستفادته في قواعد اللغة ، ولمتحاناً لقدرته على ضبط أواخر الكلمات وعنونها .

فاذا جاوزنا الضبط ، وذهبنا نفتش موضوعات الكتاب وجدناها شكولا وأغاطاً ، مجموعة من كل ماتباعد وتناءى وازور ووجدنا الرابط بينها هو التنافر والتناكر ، فكلة المكرمة ، تجاور الموز وفائدته ، وسياسة الرعية تتاخم الورق ، وقناة السويس تصاحب الحية والأخوان ، والإمام على يرافق البريد فى مصر . فهذا الخلط الذى لا يرعى للقربى ذماماً ، محال من المحال أن يكون هذا الترابط الذى ننشده وتنشده المعلومات لتتداعى وتتماسك ، وأيا ما كان فالكتاب من حيث موضوعاته يعتبر ثورة قوية ناجحة على طريقة المشروع التى ترمى إلى تأليف المعلومات واجتذاب بعضها إلى بعض ! ولو أن ثمت لفتة يسيرة لأمكن أن يقوم الكتاب على وحدات متناسقة متآخذة ، فاذا جئنا بموضوع مثل مصر ، جاز أن نضم إليه : نهر النيل — قناة السويس — حضارة قدماء المصريين — مصر فى عصر فاروق — واجب المصرى — مصطفى كامل — سعد زغلول . الخ فنكون بذلك وحدة وثيقة خالية من التكرير المربك بعيدة عن التشتيت المزرى .

وأشنع من هذا وأبشع أن الكتاب — الذى يعاد طبعه كل عام — قد خلا من كل ما يتصل بالاحداث الجديدة التى شهدها التلاميذ وسرت فى عروقهم ، واستشرفوا للقراءة عنها . والحديث فيها — كالحرب الأخيرة ، وغلاء الأسعار ، وجشع التجار ، واختراع القنبرة الذرية ، ولؤم الاستعمار ، وخطر الصهيونية ، ونكبة فلسطين ، فكل هذا يشوق التلميذ مطالعته وحرام أن نقتل هذا الشوق فى نفس التلميذ ونرميه بموضوعات جامدة صالحة لكل زمان ومكان لا تتغير بتغير الأحداث .

ومن المضحك المبكى أن تقرأ فى القطعة الثانية من الكتاب فتجده ، يتمدح بالمعاهدة معاهدة سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف ، وقد طواها الزمن فيما طوى ، وأطفأ لمعانها ، وأسقط شهابها ، وبرىء منها أهلها ، ونادت مصر كلها بسقوطها ، وطالبت بإلغائها ، ويتمجد بدخول مصر فى عصبة الأمم ، وقد أصبحت العصبة اليوم فى ذمة التاريخ ، وذهبت غير مذكورة ولا مشكورة .

ومما ينبغى الالتفات اليه بعين يقظى أن المدرسين يعمدون إلى كتاب المطالعة فيختارون منه قطعا شعرية يحفظها التلاميذ ، وقد خبرت هذه القطع فوجدت كثيراً منها خالياً من الروح الشعرية والجمال الفنى ، ميتا مدرجا فى كفن بال ، وما يصح قط أن يكون من محفوظات ذلك العصر الذى يعج عجاجه بالمتع الرائع من الشعر الحديث المتصل بالأحداث القائمة أو القريبة العهد . خذ مثلا قصيدة الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فى الحث على السفر :

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب
من راحة ، فدع الأوطان واغترب
سافر ، تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب ، فإن لذيذ العيش فى النصب

ابحث عن الروح الشعرية الجميلة بين هذا الرصف المرصوف فلن تجد لها أثراً ، بل لن تجد مزية له على الكلام المبتذل ، إلا مزية النظم ، وهى أهون المزايا . حكم ، وإن أردت التجديد فقل: نصائح ، لا قيمة لها فى وزن التلميذ ، وأكاد أكتب : لا قيمة لها فى نفسها . فهل يمثل : سافر تجد عوضاً ، يلتذ التلميذ ، ويجد النشوة والسرور ؟ وهل يمثل : فانصب فإن لذيذ العيش فى النصب يستفيد فكرة أو عبارة طريفة ؟ اللهم لا .

ثم ابحث معى عن كلمة واحدة شعرية فى البيتين فلن تجد ، وما أكثر ما تجد هذه الطرافة والجدة فى قصيدة مثل « العصفور الصغير » للأمير ، و « أنا ... » لإيليا أبى ماضى وغيرها مما يهز قلب التلميذ ، ويثير عواطفه ، ويفتح عينه وقلبه للحياة فتحا .

ولست أزعم أن ذلك خاص بالشعر الحديث فالقديم تغنى حافل فى رثاء « السلكة » « للسليك » وفى غزل « المنخل اليشكرى » وفى تهكمات « ابن الرومى » جمال وإمتاع وشاعرية نابضة قوية ممتنعة على عقول العلماء الذين يقتسرون الشعر اقتسارا ، ويعنفون عليه بقوة اللغة ، ولا يقودونه بفيض العاطفة ، وسلاسة الطبع ، وقوة الشاعرية !

ومما يؤسف أن يخصص للمطالعة حصتان قصيرتان لا تغرثان ولا تفيدان ، والمطالعة ، مادة العربية ، تستغل فى الثقافة فلابد من المعنى ، وفى الإملاء فلا بد من تكرير النظر إلى الكلمات الصعبة وفى الإنشاء فلا بد من استعادة الجميل من العبارات ، وإدخاله مدخلا كريما فى مناسبات جديدة ، وهيهات أن تتسع الحصتان لذلك كله .